التناص في شعر النقد السياسي بالأندلس
دراسة أسلوبية لنماذج من شعر عصر الطوائف والمرابطين

د. محمد أحمد مبارك دقالي

التناص أو (التناصية)

تعددت مفاهيم هذا المصطلح وتنوعت مصطلحاته فمنها : التناص ، والتفاعل النصي ، والبنيات النصية ، والتعالق النصي ، والمصاحبات الأدبية ، والمتناص ، والمتعاليات النصية وغيرها ...(١) ، وإن كنا نفضل مصطلح (التناص) الذي يعبر عن تداخل النصوص وتفاعلها.

والتناص أحد المعايير النصية السبعة التي وضعها روبرت ديبوجراند ، وولفانج دريسلر ضمن المنهج الإجرائي في نظرية علم لغة النص(٢) ، من منطلق « أن علم لغة النص لاينغلق على نفسه في محاولته معالجة النصوص وإنما يأخذ في حسابه دائما مكتسبات العلوم الأخرى التي تهتم بالاتصال الإنساني ... وأن يقيم حواراً متبادل النفع مع غير واحد من العلوم الوثيقة الصلة باللغة...»(٣).

ولد مصطلح التناص على يد جوليا كرستيفا عام ١٩٦٩ م ، وقد استنبطته من كتابات ميخائيل باختين - أحد النقاد الروس - الذي تنبه إليه وحدده بأنه « الوقوف على حقيقة التفاعل الواقع في النصوص ، في استعادتها أو محاكاتها لنصوص أو لأجزاء من نصوص سابقة عليها ، بدل الفهم التقليدي الذي يتعامل مع كل نص في صورة متسقة على أنه صنيع مبتكر ، مصدره فيه وغايته واقعة فيه كذلك «(٤) .

ثم احتضنه أصحاب النظرية البنيوية وما جاء بعدها من نظريات نقدية كالسيميائية والتفكيكية ، وفي كتابات كريستينا ، ورولان بارت وتودروف وغيرهم من رواد الحداثة النقدية(٥).

ويمكن تحديد مفهوم التناص على أنه « تشكيل نص جديد من نصوص سابقة أومعاصرة ، بحيث يغدو النص المتناص خلاصة لعدد من النصوص التي تمحى الحدود بينها ، وأعيدت صياغتها بشكل جديد ، بحيث لم يبق من النصوص السابقة سوى مادتها وغاب الأصل فلا يدركه إلا ذوو الخبرة والمران»(٦) ، ويندرج تحت هذا المفهوم التناص الشعري الذي يتجاوز المفاهيم البلاغية والنقدية القديمة في شعرنا العربي ، كالتضمين ، والاقتباس ، والاحتذاء ، والتلميح ، والنقائض ، والسرقات والمعارضات وغيرها ، وهكذا يتم الانطلاق من (النص الغائب) لإعادة كتابته ، لأنه لا يمكن أن ينحصر في مدلول واحد ثابت وإنما يتحول إلى شبكة من المستويات المتفاعلة ، وبمجرد أن يطلق الكاتب نصه الجديد الذي هو عبارة عن عدة نصوص سابقة ومعاصرة فإنه يدخل النص نفسه في عمليات تناص جديدة ، باعتبار النص الجيد قادر دائماً على العطاء المستمر لقراءات متعددة ، ومن هنا يظل النص منفصلاً عن القارئ ومتصلاً به في نفس الوقت ، كما يظل فاعلاً ومنفعلاً ومؤثراً أو متأثراً ، وتصبح عملية إنتاج النص الماثل عملية تشترك فيها النصوص الغائبة ... « وهكذا يتفاعل النصان : الغائب والماثل من أجل إنتاج (نص جديد) هو أيضا (تناص) مركب من نصوص عديدة متداخلة ، وهذه هي القراءة المعمقة التي تستبطن أعماق النص الماثل في عملية التفكيك له من أجل إعادة (تركيب) له ، مقترنة بنصوص غائبة عديدة ، بخلاف القراءة الأفقية التي لا يملك فيها النص الماثل من عناصر (الأدبية) ما يسمح للقارئ بالانطلاق في سماء الذكراة «(٧) .

على ضوء هذا الكلام يكون التناص في الأدب عبارة عن تداخل

نصوص أدبية مختارة قديمة أو حديثة شعراً أو نثراً مع نص القصيدة الأصلي بحيث تكون منسجمة وموظفة ودالة قدر الإمكان على الفكرة التي يطرحها الشاعر ، وهو ما يمكن تطبيقه على نصوص شعر النقد السياسي في الأندلس ، ويزيدنا تاكيداً على ذلك أن النقاد العرب القدماء قد تنهبوا إلى ظاهرة التداخلات بين النصوص وبخاصة في الخطاب الشعري ، حيث ظهرت مجموعة من المصطلحات تعالج جزئيات الظاهرة وهو مؤشر على تعرف العرب على ظاهرة التناص دون تحديد هذا المفهوم ، حيث ظهرت عندهم مصطلحات عديدة تقترب من معنى التناص من مثل : التلميح ، والتضمين ، والاقتباس ، والاحتذاء وغيرها ، هذا في الجانب البلاغي أما الجانب النقدي فقد عُرف التناص تحت مسميات أخرى كالنقائض والسرقات الشعرية والمعارضات ، ولعل أكثر النقاد العرب القدامى قرباً من معرفة التناص الشعري هو حازم القرطاجني ، فقد كان على دراية بتفاعل النصوص وضرورة الإفادة من كل ما هو سابق ، مبرهناً هذا على تأثير شاعر سابق بآخر لاحق ، وأن التناص في – نظره – خاصية نوعية تميز بها الشعر دون غيره من الكلام العادي وضرورة لا يمكن الاستغناء عنها ، مشيراً إلى تأثر الشعراء العرب القدامى ببعضهم البعض حيث يقول : « وأنت لا تجد شاعراً مجيداً منهم إلا وقد لزم شاعراً آخر المدة الطويلة ، وتعلم منه قوانين النظم ، واستفاد عنه الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية «(٨) .

كما فطن حازم إلى أشكال التناص الشعري ورأى أنها تأخذ طرائق متعددة كأن «يُركِّب الشاعر على المعنى معنى آخر ، ومنه أن يزيد عليه زيادة حسنة ، ومنها أن ينقله إلى موضع أحقُّ به من الموضع الذي هو فيه ، ومن ذلك أن يقلبه ويسلك به ضد ما سلك الأول...»(٩) ، وهو ما يتوافق مع الرؤية النقدية الحديثة لنظرية التناص التي تهدف إلى « تعزيز تجربة الشاعر وتوثيق دلالة محددة أو نفيها أو توكيد موقف وترسيخ معنى ، وبالإجمال إنتاج دلالة مؤازرة للنص في حالتي قبوله ورفضه بالتضمين الصريح أو بالتلميح «(١٠) .

وبذلك يمكننا القول إن التناص قد أراحنا من قضايا خلافية كثيرة ، حيث تجاوز مفاهيم المعارضات والنقائض والسرقات الشعرية وغيرها مما طرحه نقادنا القدامى .

ولا نود أن ندخل في تقسيمات النقاد المحدثين لأنماط وقوانين التناص ليقيننا بأن النصوص الشعرية هي التي تفرض ذلك التقسيم وفق ما يتلاءم وطبيعة الموضوع ، وخلال تتبعنا لبعض النصوص الشعرية في الأدب الأندلسي في عصري الطوائف والمرابطين وبخاصة النصوص المعبرة عن النقد السياسي في تلك الفترة يمكننا تحديد أنماط التناص في اتجاهين : الأول : تناص ديني ويتمثل في التناص القرآني ، حيث شكل التناص الديني حضوراً بارزاً في نصوص شعر النقد السياسي في الأندلس ، والثاني : تناص تاريخي تراثي يعتمد على استدعاء إشارات قصصية تاريخية من خلال توظيف سلوك بعض الشخصيات في سياق تجربة الشاعر.

أولاً : التناص الديني :

شكل هذا اللون من التناص القسم الأكبر في نصوص شعر النقد السياسي ، ولعل مرد ذلك أن القرآن الكريم هو نص لغوي تراثي يتمتع – إلى جانب طابعه المقدس – بحضور خاص في الكيان اللغوي العام للغة العربية ، التي لابد أن يتأثر بها كل شاعر عربي ، فهو متغلغل في نسيج الحياة اليومية والبنية الفكرية للفرد العربي ، فالتناص الديني عموما يقصد به تداخل نصوص دينية مختارة عن طريق الاقتباس أو التضمين من القرآن الكريم أو الحديث الشريف مع النص الأصلي للقصيدة أو المقطوعة ، بحيث تنسجم هذه النصوص مع السياق الشعري وتؤدي غرضاً فكرياً أو فنياً أو كليهما معاً .

والملاحظ في النصوص المتناصة دينياً أن أساليب الشعراء مع القرآن الكريم قد تنوعت وتعددت اتجاهاتها ، فمنهم من يقتبس من مفرداته وعباراته ومنهم من يستلهم معانيه وأساليبه ومنهم من يستحضر بعض شخصياته ويوظفها توظيفا فنياً ينسجم وتجاربه المتعددة.

وبالنظر في استخدام بعض المفردات والعبارات القرآنية في تلك الفترة يلاحظ أن الشاعر قد يعمد إلى استدعاء بعض المفردات والآيات القرآنية على سبيل التنصيص ،

وهو نقل النص القرآني حرفياً إلى النص الشعري ، فيأتي استعماله في حيز دلالته وإيحاءاته القرآنية نفسها ويكون الهدف في الغالب – مد المعنى أو استكمال أبعاد الصورة أو تدعيم خطابه الشعري بشاهد قرآني ، من ذلك ما ورد في إحدى مقطوعات السميسر(١١) في نقد سياسة أحد ملوك الطوائف :

يا مُشْفقاً من خُمولِ قوم
لَيْسَ لهمْ عندنا خَلاقُ
ذُلّوا وقد طَالما أذلوا
دعهم يذوقوا الذي أذاقوا(١٢)

حيث تناص الشاعر مع الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيتهم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا أتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ...﴾(١٣) ، مقتبساً كلمة (خلاق) في البيت الأول التي وظفت للدلالة على النقص وصغر القيمة ، كما أوحت من خلال سياق النص بالفجوة العميقة والفراغ السياسي الحاصل بين حكام الأندلس ومحكوميهم في تلك الفترة ، وقد تناسبت هذه الدلالات مع الحالة الشعورية المعبرة عن روح التشفي والشعور بالرضا من المصير الذي آل إليه هؤلاء الملوك من خلال الدور الذي لعبته ثنائية (الخطيئة والجزاء) ، وقد أسهم هذا التفاعل في إرضاء شعور المتلقي وحسن توقعه ، وبما أحدثه التناص من توافق سياقه القرآني مع السياق النصي الذي عبر عن مغزى النص وبؤرته.

من أمثلة التناص القرآني باستخدام بعض المفردات القرآنية أيضاً قول أبي إسحاق الإلبيري في نقد بعض فقهاء وقضاة عصره :

لا شيء أخسر صفقة من عالم
لعبت به الدنيا مع الجُهّال
فغدا يفرق دينه أيدي سبا
ويزيله حرصاً لجمع المال
من لا يراقب ربه ويخافه
تبّت يداه وماله من وال(١٤)

فيلاحظ التناص القرآني في البيت الأخير الذي توافق مع ما جاء في مطلع سورة المسد ، فتداخل المفردة القرآنية (تبت) في نسيج النص الشعري ليس مجرد تداع ذهني منفصم عن سياق النص ؛ بل هو توظيف دلالي موفق يهدف إلى إبراز ما وصل إليه حال بعض القضاة والفقهاء الذين استغلوا مكانتهم الاجتماعية والسياسية بين الناس فارتشوا وأكلوا أموال الناس بالباطل فكان جزاؤهم الويل والثبور ، وهي حال أبي لهب الذي كفر برسالة الإسلام ومبادئه فكانت نهايته الهلاك والثبور أيضاً ، وهي نهاية كل ظالم وطاغية ، هذا التناسق الدلالي يعبر – بدوره – عن صميم الموقف النفسي والفكري الذي يحياه الشاعر في هذا الزمن الرديء من خلال ما يعايشه من فساد إداري وسياسي وتفسخ اجتماعي في عصره ، وهو ما توافق مع المغزى العام للسياق النصي الذي يحمل طوابع النقد السياسي ، كما عمد الشاعر بطريقة غير مباشرة إلى استخدام تقنية الفضاء النصي التي تعد من الحيل الأسلوبية « ليبرز حالة نفسية خاصة به ، أما القارئ فإن دورة كامن في البحث عن تخريجات وتأويلات لمثل هذه المحذوفات التي يراها أمامه «(١٥)، إذ أورد المفردة القرآنية (تبت) وترك بعدها فضاء نصياً ليشرك القارئ في التجربة ويستدرجه ليكمل بنفسه بقية مضمون الآية القرآنية المتناصة .

من تناص المفردات القرآنية أيضاً ما ورد في رائية المعتمد بن عباد في نقده لحياة السجن وآلام القيد وتبدل حياة النعيم بحياة الشقاء والإذلال ، وفيها يقول:

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا
فَسَاءكَ العيدُ في أغمات مأسورا
ترى بناتكَ في الأطمار جائعة
يَغْزلنَ للناس لا يملكنَ قِطميرا(١٦)

فيلاحظ تناص الشاعر مع النص القرآني الذي وردت فيه المفردة القرآنية (قطمير) في قوله تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كُلٌّ يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾(١٧) ، فيصور حياة واقعه وواقع بناته المرير بعد أسره ونفيه في المغرب ، كما يصور المعاناة النفسية العميقة حين يستحضر صورة الماضي المشرقة في ظل الملك والسلطان ويقارنها بواقعة الأليم ، وقد وظفت دلالة المفردة القرآنية في تجسيد تلك المعاناة ، فـ(قِطْمير) في سياقها اللغوي تعني القشرة البيضاء الرقيقة التي تغلف نواة الرطب أو التمر ، وقد وظفت في السياق القرآني لتجسد حياة أولئك الذين يشركون بالله ويدعون من هو

دونه ، فقد خسروا في الدنيا والآخرة ، كناية عن الفقر وسوء المآل ، وهو ما توافق مع سياق النص الشعري في أبيات الشاعر ، كما تحيلنا دلالة هذه المفردة مع غيرها من العناصر الموظفة لبناء النص لغوياً ودلالياً وصوتياً إلى تلك الحالة الشعورية التي يوحي بها أفق النص وهي ضيق الحال وضيق السجن التي تُحرم الشاعر من التمتع بأبسط حقوقه المادية والمعنوية وتمنعه من القيام بواجباته كـ(أب) يكفل حق العيش والكفاف لأبنائه وقد عكست لنا دلالة هذه المفردة مع تفاعلها مع باقي العناصر المكونة للنسيج النصي المغزى العام الذي يوحي بنقد الشاعر للحاكم الجلاد المتسبب في معاناته وإذلاله وهو ما توحي به دلالة النص العميقة والتي اتسمت بطابع النقد السياسي.

وإذا كان الشاعر الأندلسي قد تناص دينياً من خلال استدعاء المفردة القرآنية الواحدة فقد عمد في قصائد أخرى إلى استدعاء أكثر من مفرده في التعبير عن تجربته في النقد السياسي ، من ذلك ما نجده في محاولة أحد الشعراء الأندلسيين المجهولين في نقده لحكام الأندلس الذين تقاعسوا على نصرة إخوانهم في طليطلة وتحريرها من أيدي الأسبان من قصيدة قال فيها :

لقد ذهب اليقينُ فلا يقين
وغرَّ القومَ بالله الغرور(١٨)

حيث تناص الشاعر في هذا البيت بأكثر من مفرده قرآنية حين استدعى في الشطر الأول من البيت كلمة (اليقين) التي جاءت في سياقها القرآني بمعنى الحق أو الموت في قوله تعالى: ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ (١٩) لتتوافق وتتناسب مع الخطاب الشعري وتعطي دلالة أبعد من خلال تفاعلها مع عناصر النص الشعري ، فتوحي بالتقاعس والخذلان لحكام الأندلس الذين فضلوا حياة الذل والمهادنة على كلمة الحق المتمثلة في دعوة الجهاد ورد العدو عن ثغور ومدن المسلمين ، وهو ما يؤكده الشاعر في الشطر الثاني فقد كرر عملية التناص الديني مرة أخرى مستدعياً كلمة (الغرور) التي وردت في قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلاتغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ (٢٠) لتوظف هي الأخرى في سياق التقاعس عن الجهاد وتفضيل حياة التواطؤ والخذلان ، كما توحي الدلالتان مع خلال تفاعلهما في نسيج النص بحالة الإحباط واليأس المسيطرة على جو النص التي تعبر عن نقد الشاعر لروح الانهزامية والضعف والتفكك المسيطرة على مجتمعه المسلم حكاماً ومحكومين ، وهو ما أكسب النص طابع النقد السياسي .

وشبيه بذلك ما جاء في نقد أبي الحسن بن الجد في نقد ملوك الطوائف بعد عزلهم واندثار ملكهم :

في كل يوم غريب فيه معتبر
يلقانا أو يتلقانا به خبر
أرى الملوك أصابتهم بأندلس
دوائر السوء لا تبقي ولا تذر
تلقاه كالعجل معبوداً بمجلسه
له خوار ولكن حشوه خور(٢١)

فقد اتكأ الشاعر على النص القرآني ليجسد رؤيته ويدعم موقفه ، وذلك في نصين : أحدهما ما جاء في البيت الثاني حيث استحضر صورة الفناء المحتوم لكل ظالم ومستبد وحجم المأساة التي مني بها هؤلاء الملوك ، مصوراً حالهم على سبيل المبالغة بحال الجبابرة يوم القيامة وقد كان جزاؤهم كما جاء في الآيات الكريمة : ﴿ سأصليه سقر وما أدرئك ما سقر لاتبقي ولا تذر ﴾ (٢٢)، فقد عكس التناص رؤية الشاعر لواقع ملوك عصره حيث دارت عليهم دوائر السوء نتيجة تفريطهم وغفلتهم وعكوفهم على الملذات والمنكرات فكانت يقظة القدر لهم بالمرصاد ، هذه الدلالة المستمدة من التصوير القرآني عبر التناص الحر في تقابلها دلالة أخرى تعكس مشاعر الرضا والتشفي عبر عنها الشاعر من خلال استدعاء النص الغائب الثاني الذي استمد من قصة قوم موسى الذين اتخذوا عجلا يعبدونه من دون الله بعد غياب موسى عنهم لفترة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾(٢٣)، حيث وظف المفردة القرآنية (خوار) في نسيجه النصي لتتوافق دلالتها اللغوية مع السياق النصي وهو الصوت القوي الذي تظاهر به هؤلاء الملوك ضد رعاياهم ، ولكنهم في حقيقة الأمر غير ذلك ، حيث زاوج الشاعر بين غفلة

هؤلاء الملوك وبين سطوة الدهر العادلة ، هذا الجمع بين المتضادين الذي عبر عنه التجنيس في قوله : (خوار- خور) عبر علاقة التشابه الصوتي يحلينا في المقابل إلى التعارض الدلالي الكبير بين اللفظيين فـ(الخوار) كما ذكرنا دلالة على القوة والجبروت ، و(الخور) دلالة على الضعف والهوان ،هذا التفاعل الدلالي يحلينا – بدوره – إلى مغزى النص المتسم بطابع النقد السياسي .

من التناص القرآني الذي يقوم على استلهام المعنى والأسلوب ما نجده في قول السميسر من إحدى مقطوعاته في نقد ملوك الطوائف :

خنتم فهنتم وكم أهنتم
زمان كنتم بلا عيون
فأنتم تحت كل تحت
وأنتم دون كل دون
سكنتم يا رياح عاد
وكل ريح إلى سكون(٢٤)

حيث امتص الخطاب الشعري في الأبيات الخطاب الديني في الآيات القرآنية الكريمة من سورة الحاقة في قوله تعالى : ﴿ ... وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل لهم من باقية﴾(٢٥) ، حيث يجسد التناص نقد الشاعر الصريح المعبر عن الرؤية الحقيقة للمجتمع الأندلسي تجاه حكامه من ملوك الطوائف ، حيث يتهمهم صراحة بالخيانة وبأنهم قد سقطوا في أعين الناس وانكشفت مساوئهم ، متنبئا لهم بثورة عنيفة أشبه برياح عاد العاتية التي لا تبقي ولاتذر، جزاء ما أفرطوا في الظلم والعدوان ، وقد عمَّق التناص الديني الفكرة التي يطرحها الخطاب الشعري حيث تحيلنا دلالة التناص إلى مشاعر الغضب والاحتجاج والرفض الذي يعكس واقع الحياة السياسية في تلك الفترة ، وأعطت النص تماسكاً دلالياً وعمقت في الوقت نفسه فكرة النقد والاحتجاج السياسي التي أشرنا إليها .

من أمثلة ذلك أيضاً ما جاء في نونية الإلبيري في نقد أفعال الوزير اليهودي يوسف من النغريلة وقومه من اليهود الذين عاثوا في غرناطة فساداً حيث يقول :

وإني احتللت بغرناطة
وقد قسموها وأعمالها
ورخَّمَ قردهم داره
فكنت أراهم بها عابثين
فمنهم بكل مكان لعين
وأجرى إليها نمير العيون
فصارت حوائجنا عنده
ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا
فإنَّا إلى ربنا راجعون(٢٦)

فقد تعالق النص الشعري في هذه الأبيات مع عدد من النصوص القرآنية التي جسد فيها أفعال الوزير وقومه ، إذ يتناص الشاعر مع الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كانوا قردة خاسئين﴾ (٢٧) ، حيث استلهم دلالة أفعال الوزير اليهودي بالمسلمين من غدر وخيانة وتطاول من ذلك المعنى حين نقض طائفة من اليهود عهدهم مع الله وخالفوا أوامره فكان جزاؤهم أن مسخهم الله قردة منبوذين خاسئين ، وقد تفاعلت معاني النص القرآنية مع نسيج النص الذي يحمل بنية وصفية سردية تتوازى مقاطعها وفق ثنائية ضدية واحدة مسيطرة على أجواء النص ، والتي تصور الموازنة بين حال المسلمين في الأندلس مع اليهود ، وحال المسلمين المعبر عنه بضمير الجمع (نحن) وهم الأغلبية المتأثرة والمنفعلة ، وحال اليهود المعبر عنهم بضمير الغائب المفرد (هو) والجمع (هم) والذي يحمل دلالة الهيمنة والسيطرة والسيادة على مقاليد الأمور في الدولة .

كما يحلينا النص الشعري في البيت الخامس إلى تناص ديني آخر يستلهم معاني الآية الكريمة التي تعبر عن التحلي بالصبر وذكر الله عند حلول المصائب ،حيث يتجلى ذلك من الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ (٢٨) ، حيث تفاعلت دلالة النص في البيت الخامس (ويضحك منا ومن ديننا فإنا إلى ربنا راجعون) ، كما يحيلنا هذا التوافق الدلالي من خلال التناص القرآني إلى مفارقة خفية تنعكس من خلال نقد الشاعر السياسي ، حيث تتضح المفارقة بين ما هو كائن من تسلط وهيمنة على أمور المسلمين والتطاول على دينهم ومعتقداتهم ، وبين ما يجب أن يكون وهو الثورة والانتقام ، إذ يتحول التوافق الدلالي – بدوره – إلى نقد الحاكم للبلاد في تلك الفترة على تمكينه هذا اليهودي من الوزارة وسكوته على

أفعاله وقبوله هذا الهوان والذل الذي لحق المسلمين في عصره ، كما يهدف التناص القرآني الدلالي المتفاعل مع النص إلى إثارة مشاعر المتلقي من خلال تأكيد معاني السلبية والعجز عن جميع ردود الفعل من قبل الفئة الكبرى من المسلمين وتأكيد معاني الاستفزاز والإثارة والتحريض لخلق رد فعل يتناسب وحجم المصيبة أو الكارثة التي لحقت بالمسلمين في الأندلس في تلك الفترة وهو ما أكسب النص طابع النقد السياسي.

من أمثلة الاستلهام من أساليب القرآن الكريم ومعانيه أيضاً ما جاء في سينية ابن زيدون التي قالها في محنته السياسية ينتقد فيها الوشاة الذين أوقعوا به في غياهب السجون وظلمتها وفيها يقول :

وأنا حيران وللأمـ

ـر وضـوح والتباس

ما ترى في معشر حا

لوا على العهد وخاسوا

ورأوني سامــرياً

يتقـى منه المـساس(٢٩)

فقد اتكأ الشاعر – في تناصه الديني – على النص القرآني ليجسد رؤيته ويدعم موقفه من خصومه وأعدائه الذين أوقعوا به مع بني جهور حكام قرطبة ، حيث تناص خطابه الحاضر مع الخطاب القرآني الغائب من خلال الآية الكريمة في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ قال فما خطبك يا سامري . قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها .وكذلك سولت لي نفسي .قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ (٣٠) ،

حيث استلهم دلالته في خطابه الشعري من قصة موسى مع السامري الذي يمثل رمزاً لليهودي المضلل الكاذب الذي أغرى قومه بالانصراف عن عبادة الله والاتجاه إلى عبادة العجل ، وقد نجح الشاعر في توظيف هذه الدلالة التي تفاعلت مع نسيجه الشعري وتجربته الشعورية وأكسبت النص طابع النقد السياسي من خلال ما توحيه دلالة النص الشعري المتمثلة في الصراع الدائر في كواليس السياسة في بلاط قرطبة ، هذا الصراع المبني على المكاسب الذاتية والمصالح المشتركة .

وقد يعمد الشاعر في تناصه الديني إلى توظيف أسماء بعض الشخصيات التي ذكرت في القرآن الكريم في نسيجه الشعري لتعينه على البوح بتجربته الشعورية ، ويؤكد فكرته في التعبير عن رفضه أو دعوته إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي في حياة مجتمعه معتمداً بذلك على قدرة النص الشعري على الإيحاء بالمعاني الخفية التي تفتح فضاءات رحبة من التأويلات والتفسيرات يعمل القارئ على فك رموزها وحل شفراتها ، من أمثلة ذلك ما نلحظه في بائية ابن غصن الحجاري في نقده لمعاناة السجن وآلامه ، حيث يقول :

إن رمتنا يد الخطوب بقوس

طالما سهـمها لا يصيب

أو يكن عثر الزمان فمرجو

لإنعـاشنا القريب المجيب

قد أجـاب الإلـه دعوة نوح

حـين نادى بأنـه مغلـوب

وشفـى ذو الجـلال علة أيو

ب وقد شارف الـردى أيوب

وانقضى سجن يوسف وقد استيأ

س ، وارتد مبصراً يعقوب(٣١)

فكثف الشاعر من استدعاء النص الغائب وتوظيفه مع خطابه الشعري الحاضر حيث مهَّد في البيت الأول والثاني بتأكيد قسوة الدهر وجبروته ، ثم اتكأ على التناص الديني فاستحضر بعض شخصيات الأنبياء التي قاست المحن الشداد وذاقت صنوفاً من المعاناة والابتلاءات ، وحين أظهروا الصبر والتجلد فكت عنهم تلك المحن ، كما بدأ باستحضار قصة نوح عليه السلام مع قومه الذين كذبوه وتنكروا له فدعا ربه أن ينصره ، فكان الجزاء العادل بإغراق هؤلاء القوم بالطوفان ونجاة نوح ومن معه ، كما أخبرت الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ (٣٢) ، ثم ينتقل إلى استدعاء قصة أيوب عليه السلام وكيف مسه الضر وبلغ به المرض مداه فاستغاث ربه فكشف عنه الضر وشفاه ،على نحو ما تصور لنا الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وأتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى

للعابدين ﴿ (٣٣) ، ثم ينتقل في البيت الأخير إلى استدعاء قصة يوسف عليه السلام حين سجن بضع سنين في قوله تعالى : ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ (٣٤) ، كما استحضر الشاعر قصة شفاء والد يوسف من بياض عينيه من الحزن وارتداد بصره إليه في قوله تعالى : ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله مالا تعلمون ﴾ (٣٥) ، هذا التكثيف الدلالي عبر التناص الديني يتوافق مع جو القصيدة المعبر عن حالة الضيق الشديد والمعاناة المريرة التي يعيشها الشاعر أيام محنته في السجن ، كما تحيلنا إلى دلالة التحلي بالصبر التي يتطلبها المرء في مثل هذه المواقف وقد شكلت هذه المتناصات زاداً روحياً يضفي شعوراً بالاطمئنان الممزوج بالأمل في الخلاص ، كما يحيلنا التناص أيضاً إلى دلالة أعمق وهي الشعور بالظلم تؤكده لنا دلالة البيت الثالث من خلال دعوة نوح بالغلبة والانتصار الأمر الذي يوحي بالتعبير عن النقد السياسي لأولئك الذين زجوا بالشاعر في غياهب السجون إلى جانب نقده للسجون وآلامها.

من تناص الشخصيات الواردة في القرآن الكريم ما يلاحظ في قول السمسير في نقد بعض شعراء عصره :

يا شعراء العصر لا تحسبوا
شعركم مذ كان محسوسا
فإنما حيكم ميت
كأنما محييكم عيسى
إن كان منظومكم عندكم
سحرا فمنظومي عصا موسى(٣٦)

فاستحضر بعض الشخصيات الدينية تدعيماً لموقفه وتجسيداً لرؤيته المخالفة لكثير من شعراء عصره ، فكثير من الشعراء من سخر شعره لخدمة الملوك والتكسب من ورائه بإراقة ماء وجهه أمام من يهب الأكثر ، ولعل ذلك ما دفع بالسميسر أن يجسد هذه الرؤية من خلال ما رآه من بون شاسع بين شعره وشعر هؤلاء الصنف من طبقته ، حيث تناص مع الآيات القرآنية الكريمة التي بينت المعجزات الكبرى التي سخرها على أيدي أنبيائه أمثال موسى وعيسى ، حيث استحضر الشاعر شخصية موسى ومعجزته في قهر السحرة وطغيان فرعون التي وردت في كثير من الآيات القرآنية الكريمة منها على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ (٣٧) ، ثم استحضر شخصية عيسى وما أيده الله من معجزه إحياء الموتى وشفاء الأمراض المستعصية في قوله تعالى : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بأذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمة والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بأذني﴾(٣٨)، هذا التفاعل الحاصل بين التناص القرآني والعناصر الأخرى المكونة للنسيج النصي يحيلنا إلى دلالة أعمق توحي بنداءات الشاعر المطالبة بالتغيير والإصلاح ، وقد انعكست هذه النداءات على طبقته من الشعراء في شكل نقد صارخ وكأنه يطالبهم بموقف موحد تجاه ما يحدث من فساد اجتماعي وسياسي في عصرهم .

ثانيا : التناص مع الشخصيات التراثية :

تعد ظاهرة التناص مع الشخصيات التراثية في شعر النقد السياسي زمن الطوائف والمرابطين من الظواهر الفنية البارزة الهدف منها استثمار الشاعر لإعطاء الخطاب الشعري نوعاً من الامتداد الزمني والإنساني ويكون استدعاء هذه الظاهرة – في كثير من الأحيان – يدور في فلك النقد والاحتجاج والرفض ومحاولة إصلاح المجتمع قدر الإمكان .

من أمثلة ذلك ما نجده في نقد أبي حفص العروضي الزكرمي لحكام الأندلس في إيثارهم تقريب أهل الذمة وتوكيلهم بمناصب عليا يتحكمون من خلالها بمصائر الطبقة الكبرى من المجتمع الأندلسي المسلمة ، يقول :

يا أهل دانية لقد خالفتم
حكم الشريعة والمروة فينا
مالي أراكم تأمرون بغير ما
أمرت ترى نسخ الإله الدينا
كنا نطالب لليهود بجزية
وأرى اليهود بجزية طلبونا
ما إن سمعنا مالكا آفتى بذا
لا لا ولا من بعده سحنونا(٣٩)

حيث تناص الشاعر مع شخصيتين كبيرتين في مجال الفقه هما : الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه أحد الأئمة الأربعة الكبار أصحاب المذاهب الفقهية ، وسحنون أحد كبار فقهاء المالكية أيضا ، وجاء هذا التناص متماشياً

مع رؤية الشاعر التي يغلب عليها طابع التعجب الإنكاري وقد خلقت هذه المفارقة بين الواقع المتمثل في سيطرة اليهود على مقاليد المسلمين بمساعدة أولى الأمر من المسلمين أنفسهم ، وبين النص الشعري وتماسكه الذي عبر عن نقد الشاعر الصريح ومخالفته للواقع المرير ، وقد وفق الشاعر في دمج هذه الشخصيات التراثية في بقية عناصر النص بحيث غدت جزءاً من نسيج النص الشعري ، وقد جاءت منسجمة مع السياق العام للفكرة التي يطرحها الشاعر لوجود قاسم مشترك بين هذه الشخصيات وهو رفضهم المسبق لهذا الانحراف والتطاول .

وشبيه بذلك ما ورد في إحدى مقطوعات أبي بكر بن الأبيض في نقد بعض فقهاء عصره :

أهل الرياء لبستم ناموسكم
كالذئب يدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك
وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتم شهب البغال بأشهب
وبأصبغ صبغت لكم في العالم(٤٠)

فقد تناص الشاعر مع بعض الشخصيات التراثية التي شكلت جزءاً من النسيج النصي تعبيراً عن تجربته الشعورية التي تنتقد سلوك بعض الفقهاء الذين ساعدتهم الظروف السياسية في الوصول إلى مناصب عليا ، فأصبحت لهم الكلمة العليا واليد الطولى في أمور المسلمين في تلك الفترة فاستغلوا مكانتهم السامية فارتشوا وأكلوا أموال الناس باسم الدين ، وقد تطلبت رؤية الشاعر الرافضة لسلوك هؤلاء الصنف من الناس الاتكاء على عنصر التناص الذي يعكس الصورة الحقيقية المثلى لأولئك الفقهاء الذين أسهموا في وضع الأسس الحقيقية في التعامل بين الناس مستمدين شرائعهم وفتواهم من مصدر التشريع الإسلامي القائم على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، كما يوحي التفاعل الدلالي الذي يحدثه التناص لوناً من التوافق الذي أرضى شعور المتلقي وأكسب النص طابع النقد السياسي .

ويصور الأعمى التطيلي – من خلال التناص – سلوك أحد الحكام المستبدين في قوله :

فمرآه في كل عين قذىً
وذكراه في كل حلق شجا
إذا سئل العسف بالمسلمين
فأجود من حاتم بالقرى
وإن أمكنت منهم فرصة
فأفتك من خالد بالعدا(٤١)

فيبرز تناص الشاعر مع بعض الشخصيات التراثية التي كان يضرب بها المثل في الصفات المحمودة وذلك تعبيراً عن رؤية مخالفة للواقع الذي يعيشه حيث استحضر شخصية حاتم الطائي المشهورة بالكرم تعكس واقع حال ذلك الحاكم المستبد مع أعدائه وتواطؤه معهم ببلوغ المدى في كرم حاتم ، كما يصور شجاعة خالد بن الوليد وفتكه بالمشركين بمدى تطاول ذلك الحاكم في سفك دماء المسلمين من أبناء رعيته ، هذه المفارقة التي يحدثها التناص وهذا التحالف الدلالي يحيلنا إلى ذلك التوافق الدلالي المعبر عن رؤية الشاعر الموحدة في رفض ذلك السلوك ، كما يوحي بحالة الانقسام والتفكك الداخلي الحاصل بين الحاكم والمحكوم ، وذلك الغضب والغليان المعبر عن الرفض والاحتجاج حتى صار مجرد ذكر اسم ذلك الحاكم شجا في حلق كل غيور على إصلاح مجتمعه في تلك الفترة.

وقد يجمع الشاعر فى النسيج الشعري بين متناصين مختلفين كأن يجمع بين تناص ديني وآخر تراثي مثل ما فعل عبد الله بن أبي الخصال في نقده لبعض فقهاء وقضاة عصره الذين خرجوا عن جادة الحق في قوله :

وذي نخوة يختال ثاني عطفه
لولا تناهي لؤمة قلت أصيد
له نظرة الزرقاء في كل بدعة
ولكنه عن مسلك الحق أرمد(٤٢)

فتناص الشاعر في البيت الأول مع الآية الكريمة التي تكشف عن بعض الناس الذين يجادلون في الله بغير علم قصد الإضلال ، في قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفة ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ (٤٣)، حيث نقل النص القرآني إلى إطاره المتماشي مع السياق فهؤلاء الصنف من الفقهاء يتحرون إيجاد الفتاوي الباطلة والبدع المستحدثة بغية الحصول على أكبر المكاسب الدنيوية حالهم كحال الذي يجادل في سبيل الله بغير علم ، ثم يتكرر التناص من خلال استدعاء إحدى الشخصيات التراثية ، فيتناص الشاعر مع شخصية زرقاء اليمامة ليبين بُعْدَ الرؤية عندها

ويربط ذلك الواقع لإبراز شدة حرص أولئك الفقهاء على إيجاد الحلول التي تتماشى ومصالحهم الذاتية ، في المقابل يغضون الطرف ويتعامون عندما يصدمهم الحق ، هذا التفاعل الدلالي الحاصل من خلال تعدد التناص وتوظيفه في السياق الشعري يعطي لوناً من التماسك النصي المعبر عن الفساد السياسي القائم في المجتمع الأندلسي في تلك الفترة وطبع النص بطابع النقد والدعوة إلى الإصلاح والتغيير .

وهكذا فاستدعاء الشاعر للشخصيات التاريخية والتراثية قد منح المتلقي إحساساً ثراً بفاعلية هذا الإدخال الذي جاء جوهرياً على المستوى البنيوي العميق للنص الشعري ، ومن هنا يصبح لإدخال هذه الشخصيات والإشارات الزمانية والمكانية دور قادر على تمثيل الحدث والارتقاء به إلى فاعلية التناص وبهذه التقنية يتخذ الشاعر من تداخل المتناصات وتفاعلها وتشابكها ركيزة أساسية لتعزيز تجربته وإثرائها إذ أعاد خلق المقتبسات الغائبة المتنوعة واستزرعها في سياق جديد تطلبه رؤيته الفكرية والفنية .

الهوامش والمراجع :

(١) ينظر د. محمد عزام : النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ٢٠٠١م ، ص٢٨، ٢٩ .

(٢) د . الهام أبو غزالة ، علي خليل أحمد : مدخل إلى لغة علم النص ، تطبيقات لنظرية روبرت ديبوجراند وولفانج دريسلر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٩م ص١٢، وص٣٥ .

(٣) المرجع السابق ص٧ .

(٤) شربل داغر : التناص سبيلا إلي دراسة النص الشعري وغيره / مجلة فصول ، مجلة النقد الأدبي ، تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، /مجلد ١٦ / العدد الأول ١٩٩٧ م ، ص١٢٧. .

(٥) د . محمد عزام : النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي) ، ص ٢٦ .

(٦) المرجع السابق ص٢٦ .

(٧) السابق ص٥٣.

(٨) أبو الحسن حازم القرطاجنى : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق د.محمد حبيب الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦ م. ص ٢٧ .

(٩) المصدر السابق ص١٩٣.

(١٠) ينظر مثلا تقسيم د . محمد مفتاح : تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)بيروت ، دار العودة ١٩٥٧ م /ط١ . حيث قسَّم التناص وفق المنهج الدلائلي ، وينظر أيضا دراسة د.محمد عزام : النص الغائب ، حيث حدد ثلاث قوانين للتناص :الاجترار ،الامتصاص ، الحوار ، ص ٥٣.

(١١) السميسر : اسمه خلف بن فرج الإلبيري ، ويكنى أبا القاسم ، ويعرف بـ« السميسر » بضم السين وفتح الميم وكسر السين . ينظر في أخباره وشعره : ابن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، ١٩٧٨م . ق١ / م٢ / ص٨٨٢ – ٩٠٤ . و ابن سعيد الأندلسي : المغرب في حلي المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ج١ / ص ١٠٠ – ١٠١ .

(١٢) ابن بسام : الذخيرة ، ق١/ م٢/ ص٨٨٥.

(١٣) سورة البقرة ، الآية ٢٠٠.

(١٤) ديوان أبي اسحاق الإلبيري ، تحقيق محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولي ١٩٩١ م . ص٤٥– ٤٧.

(١٥) د. موسى ربابعة :المتوقع واللامتوقع ، دراسة في جماليات التوقع ، مجلة أبحاث اليرموك ، عدد ٢/مجلد ١٥/١٩٩٨، عمان الأردن ، ص٥٠.

(١٦) ديوان المعتمد بن عباد ، تحقيق و جمع أحمد أحمد بدوي ، حامد عبد المجيد ، راجعه د. طه حسين ، مطبعة الأميرية بالقاهرة. ص١٠٠ .

(١٧) سورة فاطر ، الآية ١٣.

(١٨) المقري التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، ١٩٨٨م ، ج ٤/ ص٤٨٦.

(١٩) سورة المدثر ، الآية ٤٦ ، ٤٧.

(٢٠) سورة لقمان ، الآية ٣٣.

(٢١) ابن بسام :الذخيرة ق ٢/م٢/٢٠٦ .

(٢٢) سورة المدثر ، الآية ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٢٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٨.

(٢٤) المقري : نفح الطيب ج ٤/ ص١٠٨.

(٢٥) سورة الحآقة ، الآية : ٦، ٧، ٨.
(٢٦) ديوان أبي اسحاق الإلبيري ، تحقيق محمد رضوان الداية ص١١٠.
(٢٧) سورة البقرة ، الآية : ٦٥.
(٢٨) سورة البقرة ، الآية : ١٥٦.
(٢٩) ديوان ابن زيدون ، طبعة دار صادر بيروت لبنان ص١٧٣.
(٣٠) سورة طه ، الآيات ٩٥ ،٩٦ ،٩٧ .
(٣١) ابن الأبار : إعتاب الكُتَّاب ، تحقيق د. صالح الأشتر ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٦١ م ، ص ٢١٩ .
(٣٢) سورة القمر الآية :٨٣ ، ٨٤.
(٣٣) سورة الأنبياء الآية : ٨٣-٨٤ .
(٣٤) سورة يوسف الآية ٤٢ .
(٣٥) سورة يوسف الآية ٩٦ .
(٣٦) ابن بسام :الذخيرة ق١/م٢/ ص ٨٩٣ .
(٣٧) سورة الشعراء الآيات ٤١-٤٥ .
(٣٨) سورة المائدة ، الآية ١١٠.
(٣٩) د.إحسان عباس :أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السلفي ، نيكل / دار الثقافة بيروت ،ص٣٧ ، ٣٨ .
(٤٠) صفوان ابن ادريس : زاد المسافر وغرة مُحيا الأدب السافر ، تحقيق عبد القادر محداد ، دار الرائد العربي . بيروت لبنان ، ١٩٨٠م ، ص١١٣.
(٤١) ديوان الأعمى التطيلي ، تحقيق د. إحسان عباس قصيدة رقم ٢.
(٤٢) ابن بسام : الذخيرة ق٣ / م١ / ص٧٩٦
(٤٣) سورة الحج ، الآية ٨ ، ٩ .